سلسلة

رحلات ابن بطوطة

العدد ٢

ابن بطوطة فى بلاد الزيتون والعنب

نوال مهنى

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــاب :سلسلة رحلات ابن بطوطة
المـــولـــف : أ. نوال مهنى
تاريخ النشر : ١٩٩٩م

الناشـــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦
ت ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ، ت : ٢٤٦٢٥٦٢
التوزيـــــع : ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص. ب : ١٢٢ (الفجالة)
المركز الرئيســـى : مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)
رقـــم الإيـــــداع : ٩٩/٢٣٧٨
الترقيـــم الدولـــى : ISBN
977-303-085-7

ابن بطوطة وبداية الرحلة

قرر أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطنجى الشهير بابن بطوطة القيام برحلة طويلة لزيارة البلاد ومعرفة أخبار العباد وأقنع والديه بأنه مسافر لأداء فريضة الحج فسمحا له وخرج من بلدته طنجة بالمغرب قاصداً مكة. وحين خرج ابن بطوطة للرحلة لم يكن معه سوى بضعة دنانير وفى عصره كانت الزوايا والتكايا تعطى بلاد العالم الإسلامى فكان ينزل ضيفا عليها وعلى الأولياء والمشايخ وأصحاب الطرق الصوفية فكانوا يستضيفونه ويرحبون

به. وفى عصر ابن بطوطة لـم يكـن النـاس يسافرون إلا للأمور الهامة مثل الحج والتجـارة ولم يكن السفر للسياحة والرحلات أمراً شـائعا أو سائغا. ولكن ابن بطوطة كان يهوى السـفر والتجوال وكان شخصية ظريفة طريفة بمقاييس عصره. واستمرت رحلته خمسة وعشرين عاما وبلغ طولها مائة وأربعين ألفا من الكيلو مترات زار خلالها معظم بلدان العـالم القديـم ورأى خلالها من العجائب والغرائب ومن الطرائـف واللطائف ما لم يره غيره وتعلم خلالـها عـدة لغات وتعرض للهلاك عشرات المرات، ولكنـه نجا بفضل قوة صحته لم ينظم ابـن بطوطـة

رحلته على أساس جغرافى فلا فرق عنده بيـــن بلد وآخر ولم يشغل نفسه بـــالعمل أو التجـــارة ولكنه تفرغ للسياحة والمشاهدة فكانت رحلتـــــه دينية اجتماعية ولم تكن مـــــن أجـــل كشـــوف جغرافية أو بحوث علمية. وكـــان عمـــر ابـــن بطوطة وقت خروجه للرحلة اثنين وعشـــــرين عاما وحينما عاد قابل سلطان البـــلاد فأكرمـــه وأعجب بأخبار الرحلة وأمره بتسجيلها، وحيـــن انتهى من كتابتها أسماها (تحفـــة النظـــار فـــى غرائب الأمصار) فعهد السلطان إلى وزيره عبـــد الله بن جزى وكان كاتبا أديبا بصياغة الرحلـــة بأسلوب أدبى وتهذيبها ففعـــــل. وكـــان زمـــن

الرحلة القرن الرابع عشر الميـــلادى، ويعتـــبر ابن بطوطة رحالة العرب والإسلام فى العصـــو الوسيط ولا زالــــت أخبـــار رحلتـــه العجيبـــة المدهشة تشغل العالم حتى الآن فهيا بنا نطـوف معه ونتابع رحلته.

المؤلفـــــة

نوال مهنى

ابن بطوطة فى بلاد الزيتون والعنب

دخل صاحبنا الرحالة ابن بطوطه بلاد العنب والزيتون وراح ينتقل بين ربوعها معجبا بكل ما فيها من خبرات وسأل عن هذه البلاد الواسعة ذات البساتين الناضرة والحضارة الزاهرة. فعرف انها بلاد الشام.

وبدأ رحلته لبلاد الشام بمدينة غزة وكان يحكمها وقتها أمراء بنى سالم ومدينة غزة من أقرب مدن الشام إلى حدود مصر ولاحظ ابن بطوطة أن المسافرين يخضعون لتفتيش دقيق فلا يجوز لأحد أن يدخل الشام من مصر أو

يدخل مصر مــن الشــام دون تفتيــش ودفــع ضريبة.

وتوجه ابن بطوطة من غزة إلـــى مدينـــة الخليل لزيارة قبور الأنبياء فزار قـــبر ســيدنا إبراهيم عليه السلام ثم تابع الرحلة إلى المغارة التى بداخلها قبر السيدة فاطمة بنـــت الحســين وتابع سيره حتى وصل لمدينة القدس الشــريفة. وصلى فى المسجد الأقصـــى أول قبلـــة فـــى الإسلام. فقد كان المسلمون الأوائل يتجهون فى صلاتهم نحو المسجد الأقصى إلى ان أمـــر الله النبى محمد صلى الله عليه وسلم بالتوجه إلـــى الكعبة بمكة.

وكان ذلك فى النصف من شعبان فتحولت القبلة، وبعد ذلك وصل ابن بطوطة إلى مدينة نابلس وأعجب كثيرا بحدائق الزيتون ويقول إنها أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يصدر زيت الزيتون إلى مصر ودمشق وكذلك أكرمه أهلها وقدموا له حلوى الخروب والمربى.

وأثناء مرور ابن بطوطة فى الشام بالقرب من طبرية رأى الجب أى البئر الذى ألقى فيه سيدنا يوسف وشرب من مائه وقد أقيم حوله مسجد صغير وأعجب ابن بطوطة بصناعة الصابون فى بلاد الشام والمصبوغ بالحمرة والصفرة والمضاف إليه الطيب يعنى العطور.

وهذا يدل على أن العرب أول من اخترع الصابون وانتقل منهم إلى بلاد أوروبا.

وكان ابن بطوطة مغرما بزيارة قبور الأنبياء والأولياء فزار قبر الزاهد العابد إبراهيم بن أدهم.

ويحكى أن إبراهيم هذا كان أميرا غنيا فتبرع بكل ماله للفقراء وعاش فقيراً. ثم نذر لله أن يحج إلى البيت الحرام سائرا على رأسه. فكان يمشي خطوتين ثم يصلي ركعتين وهكذا حتى وصل إلى مكة وحينما فرغ ابن بطوطة من زيارة الأولياء توجه إلى لبنان وكان إعجابه شديدا بها.

ولبنان مشهورة بغابـــات الأرز والأنـــهار الصغيرة المنحدرة من فوق الجبـــال وكذلـــك يغطى الثلج قمم الجبال فى فصل الشتاء وتكـثر فى لبنان أشجار التفاح والخوخ.

وفى لبنان طاف ابـــن بطوطـــة بأســواقها وأعجبته حلوى الدبس أى الملبن وكان أهلـــها يجيدون صنعه.

ويحكى أنه شــــاهد لأول مــرة الملاعــق الخشبية التى كانت تصنع بدقة وتبـــدو رقيقـــة مصقولة وكل عشر ملاعق توضـــع متداخلـــة فوق بعضها ثم تحفظ فى جراب من الجلد.

وانتقل ابن بطوطة إلى مدينة دمشق وشاهد المسجد الأموى الكبير الذى بناه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك وهو من أشهر المساجد فى العالم العربى بروعة بنيانه وجمال تصميمـــــه، ويذكر علماء التاريخ أن الوليد أنفق على بنائـــه مائة صندوق بها ما يســـاوى خمســـة ملاييـــن دينار. حيث كان السقف ورؤوس العمدة مزينـــة برقائق الذهب واللازورد ويتذكر ابن بطوطـــــة أثناء وجوده فى دمشق وكانت وقتها خاضعـــــة لحكم المماليك حدث وبـــاء يســـمى الطـــاعون وانتشرت العدوى.

فدعا أمير دمشق المنادين وأمرهم أن ينادوا فى الناس بأن الأمير يريد الاجتماع بهم فى المسجد الأعظم عقب الصلاة فاجتمع الأمراء والفضلاء والقضاة وعامة الناس كبارا وصغارا من جميع الملل وكان المسلمون يمسكون المصاحف والمسيحيون يمسكون الأناجيل وجميعهم يتضرع إلى الله ويدعوه أن يكشف عنهم الغمة.

ويؤكد ابن بطوطة أن هذا التصرف من الأمير ومن الناس كان سببا فى رفع الغمة وزال الوباء.

والحقيقة أن ابن بطوطة لاحظ أن حكومة المماليك فى الشام نجحت فى تحقيق الأمن والرعاية ـ وأكثر ما أعجبه نظام الأوقاف حيث توجد أوقاف للعاجزين عن الحج فيحجون منها، وأوقاف لفك الأسرى والمساجين. حتى رصف الطرق وتنظيف الأرصفة لها وقف خاص بها.

وربما هذا هو السبب كما يقول ابن بطوطة فى جمال ونظافة الطرقات حيث تبدو طرقات دمشق منظمة ولها رصيفان يمشى عليهما المشاة أما وسط الطريق فيخصص للركبان وأثناء إقامة ابن بطوطة فى دمشق كان يقيم فى



المدارس والزوايا كعادته. لأنه كان يرغب فـي صحبه المشايخ وأهل العلم.

وفى دمشق زار ابن بطوطة سوق الحميدية أشهر أسواق الشام وأعجبته أصناف الحريـــر الملون والذهب المشـــغول وأغطيـــة الـــرأس المرصعة وكانت النساء تقبل علـــى شـــرائها وسمع عن النواعير المشهورة فى مدينة حمـــاه فى سوريا فقرر أن يراها.

والنواعير هى السواقى مثل سواقى الفيـــوم وسبب تسمية الساقية بالناعورة أنـــها تحـــدث صوتا أثناء دورانها يشبه أصوات الأبقار.

وكان للسواقى دور هام فى رى المزروعات لأنها تحمل الماء من الأماكن المنخفضة إلى المناطق المرتفعة ولذلك يشيع استعمالها فى المناطق غير المستوية وتكثر بها المرتفعات والمنخفضات وخصوصا عندما يقل أو ينعدم المطر.

والحقيقة أن السواقى أو النواعير قل استعمالها أو الحاجة إليها بعد اختراع المواتير وماكينات الرى الحديثة.

وكان ابن بطوطة سعيدا فى زيارته لمدن الشام بسبب اعتدال مناخها وكرم أهلها وهى عامرة بالخيرات وخصوصا الفاكهة.

وحاول ابن بطوطة أن يستفيد من بقائه في الشام في تحصيل العلم على أيدى شيوخ دمشق المشهورين ويحصل على إجازة علمية أى شهادة تثبت أنه درس العلم والفقه على يد فلان من الشيوخ.

وكان الشيوخ يتفننون في كتابة الإجازات لطلابهم حتى أن بعضهم كان يكتب إجازته بالشعر، واجتهد ابن بطوطة في طلب العلم والاستماع إلى الشيوخ حتى حصل على هذه الشهادة أو الإجازة على يد الشيخ علم الدين أبو محمد القاسم البرزالى.

وكان الشيخ يجلس على كرسى عريض بينما يجلس الطلاب حوله على الأرض على شكل حلقات ويستمعون ثم يسّمع كل واحد على حدة ما فهمه من الدرس، وكل طالب كان يعظم من شأن أستاذه حتى تكون لشهادته قيمة كبيرة.

وبعد أن طال بقاء ابن بطوطة فى بلاد الشام قرر الخروج منها إلى المدينة المنورة.

وكانت عادته كل عام أن ينتظر خروج ركب الحجاج فيخرج معهم وبعد إتمام الحج يتوجه إلى بلد آخر وهكذا وكان يختار صحبه الأمراء والأشراف حتى يكون فى أمان ويستمتع بضيافة الكبراء.

وفى الطريق من دمشق إلى المدينة يمـــر الراكب الذى يحرسه عدد من الفرسان بمواضع كثيرة فيتوقف عندها للراحة والتزود بالماء.

وحينما توقف الركب أمام حصن عظيم له مدخل مهيب محفور فى الصخر سأل عن اسمه فقيل له إنه حصن الكرك وتابع الركب الســـير حتى وصل إلى بئر بها ماء تسمى بئر حجــــر ثمود وأراد ابن بطوطة أن ينزل إلى البئر حتى يشرب منها فمنعه الناس رفاق الرحلة وقــــالوا له. إن هذه تسمى ديار ثمود هؤلاء القوم الكفرة الذين غضب الله عليهم لعصيانـــــهم وقــــتلهم الناقة المباركة ــ ناقة النبى صالح، ولاحظ ابن

بطوطة أن المسافرين يسرعون فى السير أثناء المرور على أرض ثمود ويتعوذون بالله من هذه الديار المخربة وأهلها الكفرة حتى بعد أن هلكوا بآلاف السنين وبعد وصوله إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ أدى فريضة الحج ثم تابع رحلته.

☆ ☆ ☆